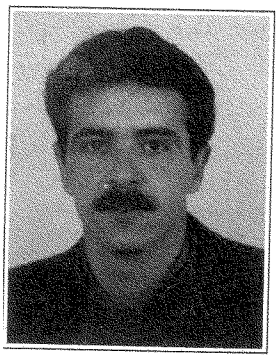

عبد الفتاح الحجمري

«برج السّعود»:
بحث في تناسق الحكاية

بإصداره لرواية (برج السّعود)(*) بعد (الطيبون) و(الريح الشتوية) و(رفقة السلاح والقمر) و(بدر زمانه)، فضلاً عن مجاميعه القصصيّة (سيدنا قدر) و(دم ودخان) و(رحلة الحب والحصاد)، يؤكد الأستاذ مبارك ربيع على حضور خاص واستثنائي في مجال ممارسة الكتابة السرديّة التخييلية، وما يميز هذا الحضور امتلاك تلك الممارسة تنوعاً جلياً في تجريب طرائق الكتابة وتركيب مستوياتها التشخيصية؛.. ويمكن الزعم أن رواية (برج السّعود) هي «رواية الشخصية»، وما يحقق لهذا الزعم موضوعيته تعدد المظاهر والمنظورات ووجهات النظر التي يرصد من خلالها السارد أحداث وتفاصيل الرواية؛ من هذا المنظور، يحرص السارد في (برج السّعود) على التنويع في رؤيته السردية وفي تقديمه لوقائع الأحداث، وبذلك تتصل الفصول فيما بينها وتنفصل أحياناً ليأخذ المحكي شكل بناءات مشهدية أو لوحات حكائية تحتفظ لنفسها ببناء خاص في صوغ الخبر عبر تبئيره على شخصية محورية غالباً ما تنتقل داخل فضاء محدد: بلدة البطنية والمدينة المجاورة لها، ولذلك يأتي هذا التبئير معلناً عن رغبات السارد في ملاحقة تفاصيل حيوات الشخصيات ورغباتها ومصائرها وأقوالها، من ثم يحتل السارد في (برج السّعود) وضعاً متميزاً يمتلك، على الأقل، خاصيتين اثنتين:

(أ) خاصية النيابة عن الشخصيات في عرض وجهات نظرها والتعبير عنها عبر توظيف خطاب منقول ينوع في طبيعة المحكي ومستويات تركيبه.

(ب) خاصية التعليق، وهي خاصيّة تنوع في طبيعة المحكي من غير أن تجعل من السارد مجرد ناقل للحدث، وإنما تتعدى ذلك إلى تزكية سلطته أولاً، وفتح أفق لتأمل ذلك الحدث ثانياً.

لا يتخصص وضع السارد في (برج السعود) وفق الاعتبارين المشار إليهما فويقه فحسب، ولكنه يجنح أيضاً نحو امتلاك جملة من التمظهرات تستوعب العديد من الصيغ النصية، لعل أهمها:

(أ) رغبة السارد في عدم الانفراد بسلطة الحكي، وفتح المجال أمام الشخصيات للتعبير عن رغباتها وتصوراتها وأحاسيسها، وهذا ما يضفي على المحكي طابعاً حوارياً ينوع في تمظهرات الصوت السردي الذي يظل مجاله ضيقاً ومقترناً، في الآن ذاته، بتعليقات السارد في شكل متابعات وصفية، من ثم يعمد هذا الصوت السردي إلى تشييد صور لغوية عادة ما تعتني بإبراز خاصية الإيهام بواقعية الحدث واحتماليته عبر استثمار الكلام الدارج والتخلي مؤقتاً عن الكلام الفصيح:

«حضر الرمادي بعد منتصف النهار بساعة أو أكثر. كان اللقاء حاراً. تساءل الرمادي قبل أن يأخذ مجلسه وهو يرى الصينية أمام ضيفيه:

ـ أتاي برد؟

كانت فرصة زمورة ليطلق عنان مرحه ورغبته:

ـ أتاي، ؟ أنا يا أخي ممنوع علي أتاي.

تعجب الرمادي من هذا المنع غير المتوقع، فأكد زمورة:

ـ الطبيب يا أخي منعني من أتاي بالمرّة! (ص ٩٤)»

(*) مبارك ربيع: برج السّعود، رواية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٠.

(ب) رغبة السارد، مرة أخرى، في إيهامنا بانتمائه لفضاءات الحدث وقربه من شخصيات الرواية عبر ترديده غيرما مرة «لخالتي فاطنة».

(ج) من هذا المنظور، يؤكد حضور السارد أيضاً على خاصية تنويع مستويات الكلام عبر توظيفه لذاكرة تنفتح على توظيف دال لبعض المرددات الشعبية باعتبارها، أولاً وقبل كل شيء، لغة تمكن (برج السّعود) من تشييد عالم روائي يتقاطع فيه الواقعي بالتخييلي بالاحتمالي اشتغالاً وتشكلاً، وهكذا ترتبط خاصية تنويع الكلام إما بالاعتماد على تجليات الغناء (الرواية صفحات: ٥٦ ـ ٥٧ ـ ٨٠)، أو تجليات الحكي الشفوي الزجلي (الرواية ، ص: ٦٦)، أو بالاعتماد أخيراً، على تجليات المثل/ الحكمة، (الرواية، ص: ١٦)، أو المثل الساخر، الضاحك..

وتتخذ رواية (برج السّعود) من خاصية التراكب الحكائي ملمحاً لرصد مصائر الشخصيات وعلائقها العاطفية الوهمية التي تربط بعضها ببعض، أو تربطها بالمكان والأشياء، من ذلك مثلاً علاقة الريطي بالمعلومة، وهي علاقة يؤشر عليها تراكب حكائي يستحضره المحكي بدءاً من افتتاحية الرواية التي تعرض لمشهد رَكْضِ الريطي نحو أرضه، تلك المنسية البعيدة، وهو نفس المشهد الذي ينغلق عليه المحكي أيضاً في الفصل الأخير عبر استعادة مشهد رَكْضِ الريطي نحو أرضه بعدما علم برفض المعلومة طلب زواجها منه؛ علاقة الريطي بالمعلومة، إذن، علاقة تحكمها عاطفة وهمية مآلها الجنون وتوتر المشاعر وخيبة الأمل...، ولعلّ الوضع المفارق الذي يميز علاقة الريطي بالمعلومة هو نفس الوضع الذي يحكم علائق كل من حميمد بسيارته الفيكتوريا ٣٩، وعلاقة عمار بالمعلومة، وعلاقة الحاج الرمادي ببنت الرشام، وعلاقة صفية بنت سي موح بحميمد، وعلاقة هشومة بعمار، إنها علائق قلقة، متوترة، متناقضة، وموزعة، تؤثر فيها انعكاسات المحيط وثقل الفعل اليومي المعيش والمبتذل، من هنا يعتني البرنامج السردي في رواية (برج السّعود) بهذه العلائق المتداخلة المميزة لأوضاع الشخصيات وأفعالها وحركاتها، وهكذا، يجعلنا السارد ندرك طبيعة تلك العلائق والأوضاع التي تؤطرها عاطفة وهمية تهيمن عليها حالات الجنون والمتاهة وامتلاك الأوهام واستعادة صور ذاكراتية متناقضة...، غير أن (برج السعود) وهي توظف هذه الخصائص ضمن بنيتها السردية، فإنها تمنح لعلاقة السارد بالشخصيات حيزاً مركزياً مؤكدة أهمية البعد النفسي والاجتماعي الذي يسم مساراتها وأوضاعها، من ثم لا يعمد السارد إلى رصد بيوغرافية تلك الشخصيات، بقدر ما يعتني بتقديمها في سياقات متقطعة تفترضها طبيعة تناسق الحكاية نفسها، إن رواية (برج السّعود)، تبعاً لهذا وذاك، تتخلى عن «الشخصية/ النمط» لصالح «الشخصية/ السياق» وفق مستويات متداخلة وتوزيع متنوع في استحضار ملامح شخصيات فاقدة لبطولتها «الفردية»..؛ ولذلك، يكشف تناسق الحكاية، في هذا النص الروائي، عن طبيعة التناقض الذي يحكم رغبات تلك الشخصيات، إنه تناقض يحدد رؤيتها للعالم واختيارها لتلك الرؤية كنتيجة حتمية تستتبعها ظروف محيطة تحد من قدرتها على تجاوز أوضاع ذلك الواقع، من ذلك مثلاً سمات الحيرة والخطأ في تقدير الإنسان في مشهد رَكْضِ الريطي نحو أرضه، والخوف من المواجهة في مشهد لقاء أهل البلدة مع أبي القتيل الحاج صابر، وصعوبة المكاشفة في مواقف كل من هشومة مع عمار وصفية مع حميمد، والحقد وإثارة الغيظ في علاقة حميمد مع أهل القرية.. إلخ..، من هنا، تكاد تكون هذه السمات وغيرها مشتركة بين جميع شخصيات (برج السّعود) الطامحة نحو تجاوز واقع رتيب، مثقل، متوتر بالتصدع والخيبة حتى في لحظات الفرح القليلة...

وتتميز المظاهر النصية للمشخصات الزمنية في (برج السّعود) بالعديد من الاختيارات التوظيفية، فإذا كانت خاصية التوازي تقوم على أساس التمييز بين زمن القصة وزمن الخطاب، فإنها خاصية تسعى نحو امتلاك رؤية شاملة للواقع وتحولاته، نقرأ في «ما قبل الكلام» ما يلي:

«منذ منتصف القرن، عرفت البطنية من جديد نشاطاً وعمراناً، وامتلأت بسكانها، بل إن ذكرها تردد كثيراً في المحاضر والمحافل الرسمية، بفعل تطورات وتغييرات اقتصادية اجتماعية، ارتفع معها مستوى المعيشة وانعكس بوجه خاص على ارتفاع أثمان الأرض... (ص ٥/٦)»

ونقرأ في صفحة (٥٥) من الرواية:

«وكان أن أصبح للأرض مردود وثمن، ولآل المنصري على كثرتهم شغل منتظم، وراتب شهري وأشياء أخرى،... وكان لا بد أن يتركوا البطنية القديمة إلى الجديدة، متخلين عن الخيمة والكوخ ليسكنوا داراً مبنية مجهزة بالماء والإنارة والراديو...»، بهذا يعمد زمن الخطاب إلى استثمار مشخصات زمنية تؤطر بناء الحدث وضمنه أوضاع وحركات الشخصيات، وغالباً ما

تستعيد تلك المشخصات تحققات زمنية تعود إما «لبداية النصف الثاني من هذا القرن» حينما كانت البطنية تمتلك وجوداً واقعاً من خلال ورودها في مذكرات أحد الأطباء الأجانب (ص ٥)، أو «لمنتصف القرن» عبر النشاط العمراني الذي عرفته البطنية (نفس الصفحة)..، ويعمل زمن القصة في (برج السّعود) على تنويع مظاهر مشخصاته عبر توظيف لأزمنة نحوية تتخذ من الماضي والحاضر والمستقبل إطاراً عاماً للتأكيد على احتمالية الحدث الروائي، وعبر العديد من الإشارات الزمنية التي تضمن للمشاهد واللوحات الحكائية مظاهرها الانسجامية في ارتباطها بالواقع اليومي للشخصيات وطقوسه المكرورة، من ذلك إشارات زمنية كثيرة نكتفي بالإشارة، في هذا السياق، إلى بعضها: شهر أو شهرين (ص٢٦) ـ خيبة هذه الأيام (ص ٣٢)، الليل (ص ٣٣)، الصباح (ص ٥١)، ارتفع الضحى، بعد الإفطار (ص ٧٧) إلخ...، على أن هذه الإشارات الزمنية وغيرها، وإن كانت تتسم بطابع العمومية، فإنها تحافظ على ربط أفعال الحكاية بإيقاعات زمنية تحقق لها تمظهراتها الاحتمالية، ومن ثم تنوع هذه المشخصات الزمنية في مظاهر التخييل من خلال تأطير البرنامج السردي لرواية (برج السّعود) بتنويعات زمنية متراكبة كتلك التنويعات التي تحتويها قصة عمار بتوظيفها لاسترجاعات زمنية عادة ما تنطلق من الحاضر (حاضر عمار بالبلدة) نحو الماضي (ماضي عمار خارج الوطن)...

وتشتلهم رواية (برج السّعود) مشخصاتها الفضائية من طبيعة مادتها الحكائية، عبر اعتنائها بالفضاء الريفي وبعلائق الشخصيات وتحولاتها داخل ذلك الفضاء، الذي يشتتبع الاهتمام به، في تقديري، جملة من الأسئلة الخاصة بنقل مجال التوظيف من الفضاء المديني إلى الفضاء القروي، أي من المركز إلى الهامش دون إغفال لحدود التفاعل بينهما انفصالاً واتصالاً، تشهد على ذلك نصوص روائية عربية كثيرة من الصعب حصرها في هذا المجال نذكر منها على سبيل التمثيل: (زينب) لهيكل، (الأرض) لعبد الرحمن الشرقاوي، (بامو) لأحمد زياد، (عطش الصبار) ليوسف أبورية، (وعاد الزورق إلى النبع) لعبد الكريم غلاب، (خالتي صفية والدير) لبهاء طاهر إلخ...، من هذه الزاوية، تعتني رواية (برج السّعود) بتشخيص لحظات التحوّل التي يعرفها فضاء البطنية، إنها لحظات تمظهرها حركة الشخصيات في علائقها بنفس الفضاء كوسيلة للبحث عن الكينونة المفتقدة، وكمال لمغالبة انكسارات وتوترات نفسية، ولذلك فإن تحول فضاء البطنية يوازيه تطلع الشخصيات الروائية نحو أجواء جديدة تمكنها من نزع أقنعتها وبالتالي تغيير نمط عيشها،... ليظل سؤال المشخصات الفضائية في هذا النص الروائي مقترناً باستعادة تلك الكينونة التي تعيش داخل الفضاء وكأنها على هامشه، منتمية إليه وكأنها منفصلة عنه...

تمدنا معطيات تحليلنا السابق لمستويات تناسق الحكاية في (برج السّعود) ببعض الخلاصات الأولية نوردها ـ توخياً للتلخيص ـ في التركيب الموالي:

(١) استمرار مبارك ربيع في تجريب طرائق كتابية مختلفة عن تلك التي تمظهرها نصوصه الروائية السابقة اشتغالاً وتناولاً...

(٢) عمق وغنى البعد «الثيمي» للمشاهد ضمن المتخيل السردي لهذا النص الروائي، والسعي نحو الاعتناء بأسئلة البحث عن الذات وكينونتها المفتقدة...

(٣) تخلّي رواية (برج السعود) عن الشخصية/ البطل، والاعتناء بوضع السارد في علائقه بالشخصيات الروائية، وفي علائقه بالمشخصات الزمنية والفضائية عبر النزوع نحو تجاوز منطق الحبكة، والعقدة، والحل...

(٤) تهجين فضاء النص الروائي بالعديد من المستويات التلفظية المتداخلة والمتخللة للمحكي: مرددات شعبية، أمثال، كلام دارج، لغة علمية...، وذلك عبر بحث عن منطق خاص للغة الروائية...

(٥) لعلّ أهم اعتبار تراهن عليه رواية (برج السّعود)، يتمثل في السعي نحو فتح أفق جديد لكتابة «واقعية جديدة» لم تستطع بعد أن تتخلى عن ملامح التجريب ومفترضاته تركيباً وتشكلاً..، وذلك رهان يحتاج، من غير شك، إلى وقفة تحليلية أخرى...